

## الوقعة الظالمة

عجب بنو كنانة إذ أصبحوا فوجدوا مكان بنى عمهم خاليًا من خيامهم، ولم يعرفوا الباعث الذي دفعهم إلى الإسراع عنهم في أول ليلة حلوا بها في أرضهم؛ ولم يعلموا أين ساروا، ولا أية وجهة قصدوا، إلا ما دلت عليه آثارهم التي خلفوها فوق رمال الصحراء في سيرهم نحو الجنوب.

ولكنهم مع ذلك لم يأسفوا على فراقهم، ولم يجزعوا لمسيرهم، بل أحسوا أن عبثاً ثقيلاً قد انزاح عن عاتقهم، لأنهم كانوا موقنين أن إقامتهم في جوارهم لا بد أن تجر عليهم عداوة ذلك الملك الثائر القوى امرئ القيس، وتورطهم في حرب مع حلفائه من بكر وتغلب، وهم جيرانهم في الأرض وأقرباؤهم في المصاهرة والمعاملة. ولقد كانوا في ترحيبهم ببنى عمهم، وقبولهم جوارهم، إنما ينزلون اضطراراً على حكم المروءة، خشية من معرفة الجبن، وأنفة من رد اللاجئ إلى حماهم؛ فما كانوا ليرفضوا نجدة بنى عمهم الذين أتوا إليهم ليلوذوا بحمايتهم، ويطلبوا معونتهم، ويستظلوا بظلهم. ولهذا لم تخل قلوبهم من شعور بالارتياح عندما رأوا مكانهم خاليًا في الصباح.

ومضت الليلة التالية عليهم وهم مطمئنون وادعون فرحون  
بذهاب بنى عمهم عنهم بغير أن تمس مروءتهم أو يخفر جوارهم.  
ولكنهم ما كادوا يستقيظون فى فجر اليوم الذى بعدها، حتى  
سمعوا بين الخيام صيحة عالية تنذرهم بقدم عدو يملأ أرضهم  
ويحيط بأطراف منازلهم. وما كادوا يخرجون من البيوت ليعرفوا  
حقيقة ما أتى به الصريخ، حتى رأوا الخيل موزعة خلال الديار،  
وفرسانها يقعون بالسيوف فيمن يلقاتهم من أهلها، فسارع الرجال  
إلى الخيل يحاولون أن يلقوا ما استطاعوا لذلك العدو الذى أتاهم  
على غرة، وباغتهم وهم لا يتوقعون حرباً ولا عدواة.

وعلت بعد حين ضجة القتال، وعم الفرع، وصاح النساء، وبكى  
الأطفال والتحم القوم فى قتال عنيف، ولكنه كان قتالا غير عادل  
بين جيش كثيف مقبل فى عدته، وبين جمع مضطرب متفرق  
لا يكاد يجد فرصة لالتماس السلاح، ولا سبيل إلى ظهور الخيل.  
فما هى إلا ساعة حتى كانت كنانة فلولا متناثرة، يحارب فيها  
الرجل على قدميه، فلا يلبث أن يخر تحت سنابك خيل أعدائه  
المحيطين به، أو يفر فيها الفارس يطلب منجاة ليستطيع أن ينظر  
فيما حواليه فيتبين من أين يأتى إليه العدو، أو أين ذهب إخوانه  
فى فزع المباغته.

وأقبل فارس يركض فرسه بين البيوت فى حنق وهو يصيح:  
«يا لثارات الملك! يا لثارات الهمام!».

وجعل يضرب يميناً وشمالاً لا يدع شيئاً إلا خبطه، فإذا لم يجد محارباً من الرجال ضرب الخيام فمزقها، وقطع أطناؤها أو عقر الدواب وضرب أعناقها، حتى بلغ آخر البيوت فوقف على فرسه ينظر حوله وهو في درعه لا تظهر منه إلا عينان تلمعان من ثقبى المغفر. ثم رفع سيفه فوق رأسه فجعل يلوح به ويصيح في نغمة وحشية امتزج فيها الفرح بالحقد والشماتة بالمباهاة، فقال: «هلم يا بنى أسد! فما هي ذى الخيل تمطركم فى مأزق الموت؛ أين ما كنتم تهددون به من خيلكم؟ أين نزوتكم يوم سفكتم دماء حجر؟».

ولم يكن قريباً منه إلا عجوز تسير متعثرة وهي مقبلة نحوه، تريد أن تجرى إليه فيعجزها قيد الشيخوخة، وتريد أن تصيح به فلا يواتيها الصوت. فوقف متعجباً ينظر إليها ويتأمل سيرها المترنح وحركتها المضطربة.

واقتربت منه وقد بدا على وجهها المجدد غضب زاده تجعداً، حتى إذا ما صارت منه على خطوات صاحت به بصوت مرتعش كأنه صفير الريح فى القصبة الجوفاء فقالت: «ماذا تصنع بحربنا أيها القاتل؟ حلت عليك لعنة الآلهة!».

فصاح الفارس بها: «أخرسى أيتها الشوهاء! فلولا أنك امرأة لأطحت رأسك القبيح».

فعدت المرأة فصاحت به ولم تزل تتقدم نحوه والغيط يزيد من رعشتها: «هلم فاقتلنى - فما أنت من قوم يتورعون عن قتل مثلى. ما الذى دفعكم إلى قتالنا ولم تكن بنا عداوة لأحد؟».

فارتد الفارس إلى الوراء قليلاً، وضحك ضحكة عالية وقال: «هرب قومك وخلفوك لتحمى ظهرهم أيتها العجوز الشمطاء. ما كان أجراهم على القتال يوم قتلوا حجراً».

فتقدمت العجوز نحوه مرة أخرى حتى أمسكت بعنان فرسه وقالت وهى تهز رأسها بعنف: «لم يقتل قومي حجراً، ولكن الذين قتلوه فاتوكم وأعجزوكم».

فنظر إليها الفارس ملياً ثم ضحك ضحكة أخرى وصاح بها: «أهذا ما أوصوك أن تقولى؟ يا لبنى أسد إذ يستعينون بمكر العجائز!».

فصاحت المرأة بصوت أجش لا يكاد يظهر للسمع: «من أنت حتى تكذبنى؟ عليك اللعنة! لو كنا على حرب لأعجزناكم عن أن تطأوا أرضنا. من أنت؟ وأين ذلك الملك الذى أتى بك؟ دلنى عليه لكي أصب اللعنة على رأسه كما سفك هذه الدماء البريئة».

فصمت الفارس لحظة متردداً، وداخله خوف من أن تكون المرأة صادقة، وهجمت عليه الشكوك بغتة فمألت قلبه حتى أسرع أنفاسه واضطرب قلبه، فنزع المغفر عن رأسه ليستروجه، ثم نظر إلى المرأة وقال متلهفاً: «ماذا تقولين؟ إنك تكذبين!».

فرفعت المرأة رأسها إليه، وهي لا تزال تهتز من الغضب وقالت: «أنت الكاذب ويلك! أقول لك دلى على ابن حجر. دلى على ابن حجر».

ثم وقفت تنظر فى وجهه لحظة فرأته ينظر نحوها فى وجوم، ورأت عينيه تطرفان وشفاته تختلجان، وتبينت فيه أثرًا يشبه الخوف، فقالت له وقد خف ما بها من الحنق: «من تكون أنت». فقال الفارس بصوت ضعيف وكأنه غائب عن وعيه: «أنا امرؤ القيس. أنا ابن حجر».

فتخالفت المرأة حتى كادت تسقط ثم جلست على الأرض وجعلت تبكى. فأسرع امرؤ القيس فنزل عن فرسه، وذهب إليها فوضع يده على رأسها وقال لها بصوت مضطرب فيه لهفة وفتح: «هل قلت صدقًا؟ أليست هذه منازل بنى أسد؟ أما حل هنا بنو أسد؟ أما أتوا هنا بالأمس؟ أتقولين إنهم لم ينزلوا هنا؟».

فتحركت المرأة ببطء وقالت بين شهقاتها: «أبيت اللعن أيها الملك! لقد لعنتك فى وجهك وسببتك فى غيظي، ولكنها الأقدار قد أرادت أن تسفك ما سفكت من دماء قومي. حقا قد أتى بنو عمنا بالأمس ونزلوا فى جوارنا، ولكنهم رحلوا بالأمس خفية ولا نعلم أين ذهبوا. أسرع إلى رجالك، أسرع إليهم ومرهم أن يكفوا عن القتال، فلسنا لك بئار. إن تأرك قد فاتك كما قلت لك. أسرع قبل أن يأتى أصحابك على سائر قومي».

فقام امرؤ القيس صامتاً وهو لا يكاد يقوى على الوقوف ثم رفع يده فمسح العرق الذى بلل جبينه، ووضع المغفر على رأسه وركب فرسه، وركضه نحو السهل الذى كانت فرسانه لا تزال تجول فيه فى أثر من بقى من بنى كنانة، وهو بين حين وآخر يثب فوق الجثث المعفّرة المنثورة بين البيوت.

وكان تكشف الحقيقة المرة صدمة عنيفة، أصابت رجال بكر وتغلب، وبعثت فى نفوسهم أشد الأسى والغضب. فلقد جاءوا مع امرئ القيس ليحاربوا معه قتلة أبيه بنى أسد ويساعدوه على الانتصاف منهم ونيل حقه الذى لا يشك فيه عربى. ولكنهم بدل أن يقاتلوا أصحاب الجريمة هبطوا على قوم أبرياء، فخبطوهم خبطة شديدة وهم على غير استعداد؛ وكان هؤلاء الأبرياء جيرانهم وأصحابهم الذين لم تكن معهم سابقة عداوة: بنى كنانة. حقاً لقد كانت حرباً مشؤومة ظالمة، ولا يدرون كيف يتبرأون من دمائها التى سفكت، ولا كيف يصلحون من الأذى الذى أنزل. إن تلك الأرواح التى ذهبّت فى هذه الواقعة الظالمة، لن تستقر فى نومها، بل إنها لن تزال تلزمهم فى كل موقع، وتتبعهم فى كل منزل، وتساعد عليهم أعداءهم وتأخذهم من ورائهم، وتصيح فى الليل منادية مُعولة صارخة، تنشر الوحشة حيث ساروا، وتُحل عليهم الشقاء أينما حلّوا.

ملاً الخوف أفئدة بكر وتغلب، وغلبهم ذلك الشعور الذى يستولى على قلب المجرم الذى يصيب البرىء، وذلك الأسف العميق الذى يتغلغل فى قرارة نفس الظالم الذى يسطو على الضعيف؛ فما هى إلا ساعة بعد هذه الواقعة الخائبة حتى كان الجيش المنتصر يسير ببطء تاركاً منازل كنانة، يقصد إلى الصحراء المنبسطة نحو الجنوب، حتى إذا ما غابت عنه كنانة ووديانها، نزل الرجال عن الخيل ورموا حبالها على غواربها فى فتور، وتركوها ترعى بين الأعشاب الذابلة فى الفضاء الفسيح، وأخذوا يوقدون النيران فى صمت وتراخ، ويصلحون من شأنهم فى غير اهتزاز إلى النصر الذى أحرزوه، فبعضهم يضمد جرحاً صغيراً أصابه، وآخرون يستلقون على الأرض الجافة يطلبون بعض الراحة، وقد خيمت عليهم كآبة شاملة. وانتحى امرؤ القيس ناحية مع عامر بن الجون وجماعة من رؤساء تغلب وبكر لينظروا فيما هم فاعلون، بعد إذ كان ما كان. وكانت شمس النهار لا تزال رفيقة لم يشتد بعد حرها، فاتخذ كل منهم مجلساً على الأرض، بعد أن مهده وأزال عنه الأحجار الناتئة، واحتبوا بحمائل سيوفهم إذ لم يجدوا ظهراً يستندون إليه؛ وكان الوجوم يبىدو على وجوههم، ولا يكاد أحدهم ينطق بكلمة فى أثناء ذلك. وكان امرؤ القيس أكثرهم اضطراباً يختلس النظرات إلى وجوه القوم، وقد شعر بما ملاً نفوسهم من الأسف والشعور بالخيبة.

ولما اطمأن بهم المجلس وهم فى هذا الصمت، نظر امرؤ القيس إلى عامر نظرة أودع فيها كل أمله، نظرة امتزج فيها الاستعطاف والتوسل بالكبرياء والتلهف.

ونظر إليه عامر وشعر بما كان يجول فى نفسه، فلم يملك أن أحس نحوه عطفاً ورقّة، إذ فهم من نظرتة ما كان فى صدره من بلبلة وخشية. وتحرك فى مجلسه حركة قوية كأنه يريد أن يخلع عن نفسه ما ساورها من الضعف، وينشط إلى مساعدة ذلك الشاب الذى ألقى عليه الأقدار حملاً ينوء به، ولم يخل قلبه مع شعوره بهذه الرقة من شعور آخر امتزج بها، شعور يشبه أن يكون احتقاراً، كان لا يزال يعاوده بين الحين والحين، كلما بدا له ضعف صاحبه وقلة صلاحه لمعاناة مصاعب الحياة.

وأحس عامر عند ذلك أن تلك الساعة لها ما بعدها، فقد كان الجو ممتلئاً بالشكوك، وكانت نفوس القوم عقب خيبة اليوم تطفو فوق هذه الشكوك مترددة مزعزعة بين الانصراف والبقاء، وبين الانفضاض من حول امرئ القيس والاستمرار معه فى نضاله. فاستجمع قواه وعقد النية على أن يدافع هذه الشكوك حتى ينتصر عليها، فبدأ يتكلم وهو يتكلف الظهور فى مظهر الخلى المستبشر فقال يخاطب أصحابه: «أرايتم كيف جنى هؤلاء على أبناء عمهم؟ إنها نذالة وخيانة».

فرفع القوم أبصارهم نحوه فى تردد، وبقوا صامتين فى شىء يشبه الحيرة. وكان جابر بن يحيى التغلبى زوج فاطمة جالساً فى جانب المجلس يختلس النظرات إلى أصحابه، فرأى التفاتة امرئ القيس إلى عامر، ورأى حركة عامر وسمع قوله، وتحركت نفسه كذلك بالركة إلى ذلك الشاب الذى ما زالت الأقدار تقسو عليه وتشرده، وتتعبه بالخيبة. فصاح من مكانه فى شىء يشبه الغضب وهو متجه إلى عامر فقال: «صدقت يا أبا الجون. إنهم ساروا عن بنى عمهم ولم يخبروهم بما عزموا عليه فجازوهم بذلك شر الجزاء على قبولهم جوارهم. وحق الأقيصر إن دماء كنانة فى أعناق بنى أسد».

فتنفس امرؤ القيس عند سماع هذه الأقوال، وداخله شىء من الارتياح والأمل، ولاحت على وجوه الجالسين لائحة من معنى جديد. لقد أخذوا ينظرون إلى نكبة كنانة نظرة أخرى، وسرت فيهم هزة كأن حملاً قد أزيح عن كواهلهم. حقاً إنهم لم يقصدوا قتل كنانة. ولئن أخطأوا وقتلوا منهم طائفة بريئة، فإن وزر ذلك إنما يقع على بنى عمهم الذين غرروا بهم وخانوهم وتخلوا عنهم. وانفتح مجال القول، فبدأ كلثوم بن مالك التغلبى يتحرك للكلام، وانتهز عامر الفرصة فوجه إليه الخطاب قائلاً: «ماذا ترى يا أبا عمرو؟». فنظر الجميع إلى كلثوم، وكان رجلاً طويلاً نحيفاً، أحمر الوجه، أسود اللحية تلمع عيناه كأنهما عينا فهد أرقط، وبينهما خطان مستطيلان يخيل إلى من رآهما أن الرجل لا يعرف كيف يبتسم.

فرفع رأسه فى بطة، وتكلم بصوت هادئ، فقال: «حقاً لقد ظلمنا بنى كنانة اليوم، ولقومنا العذر فيما أحسوا من ندم وحزن على هذه الواقعة التى لم يصيبوا فيها عدواً. ولكن أبا الجون أصاب وصدق، فإن الذين أجرموا هم بنو أسد، وما لنا ذنب فى دماء هؤلاء الأشقياء الذين ذهبوا ضحية غدر بنى عمهم».

ثم نظر إلى أصحابه من شيوخ تغلب، فقال بصوت رقيق يشبه أن يكون توسلاً: «لقد علمتم أن ابن حجر قريب الرحم منا معشر تغلب، وما يليق بنا أن نتخلى عنه، وهو رجل يطلب ثأره من قتلة أبيه. أما أنا فلن أتخلى عنه بمن أطاعنى، حتى يبلغ ثأره وثأر من قتلنا من كنانة».

فساد الصمت حيناً، ولم يتكلم أحد من بكر، وخشى عامر أن ينخلع البكريون من مساعدتهم، فنظر إلى أحد شيوخهم حلزة ابن مكروه، وكان له صديقاً، وقال له: «ماذا ترى يا أبا الحرث؟ لا زلت أهلاً للمكرمات!».

فتحرك الشيخ، وقد وقع منه ترسل صديقه موقعه وقال: «لهف نفسى على من قتل المنذر من قومي عند جبل أواره! لهف نفسى على قتال المنذر وأشياعه!».

فبادر عامر يجيبه: «لكم السابق إلى المكارم يا أبا الحارث، ولئن أصبنا بنى أسد لقد أصبنا بهم المنذر».

فأخذ القوم في شجون الحديث وقد ذهب ما شعروا به من  
الوجوم والتشاؤم، فما زالوا حتى انتهى حديثهم إلى الاتفاق على  
أن يسيروا جميعاً مع امرئ القيس في آثار بني أسد ليصيبوا منهم  
ما يشفى من قتلة أبيه.

وسار الجيش الكثيف في تلك الليلة، وفي طبيعته الأدلاء  
يتعقبون آثار الهاربين نحو الجنوب.

وسار امرؤ القيس على فرسه الشقراء، وإلى جانبه عامر  
ابن الجون وجابر بن يحيى، وجعل ينظر حوله إلى الفضاء الفسيح  
الذى تتراقص فيه الكثبان البعيدة في ضوء القمر الساطع، وامتلاً  
قلبه أملاً وبشراً بعد ما اعترته غشية من اليأس والخيبة؛ وجعل  
يترنم وحده بصوت خافت يناجى به نفسه. فالتفت إليه عامر  
باسماً كما يلتفت الرجل إلى صبي غرير، وقال له في عطف لم يخل  
من استخفاف: «لقد جاشت نفسك يا بن أخي».

فنظر إليه امرؤ القيس وقال وهو يرد على ابتسامته:

ألا يا لهف هند إثر قوم      هم كانوا الشفاء فلم يصابوا  
وقاهم جدهم ببني أبيهم      وبالأشقين ما كان العقاب  
وأفلتهن علباء جريضا      ولو أدركته صفر الوطاب

فصرف عامر وجهه عنه وعاوده الشعور بذلك الأزدراء الذى  
كان يهجم عليه كلما رآه يتعلق بأذيال الأحلام، لاهياً عن حقائق

الحياة الجاهمة ومشكلاتها؛ وضرب جنبي فرسه بعنف، فأسرع  
به وقال لصاحبه في لهجة تشبه التقريع: «أسرع، أسرع فقد سبقنا  
القوم».

\* \* \*